شيماء الحسيني..

(12) السلاح الصامت

– لقد مللتُ يا دكتور.. أنا لم أفقِد من وزني سوى خمسة كيلو جرامات فقط منذ أن وطئَت قدمي هذه العيادة، ثلاثة أشهر مرّت دون جدوى، بالرغم من وعدك قَبلَ بدءِ الجلسات بفقدان ما يقرب من ثلاثين كيلو جرام، إلا أن هذا لم يتحقّق إلى الآن، ما هو الحل؟!

نطقَت (غادة) هذه الكلمات في حنق وغضب وهي تخاطب (شريف) طبيب أمراض السمنة والنحافة المعالج لها.

التفَتَ ناحيتها وهو يقول في هدوء:

– سيدة (غادة)، حالتُكِ تحتاج وقتًا أطولَ من المعتاد، أرجو أن تتحلّي بالصبر، لقد عرضتُ إجراء عملية ولكنكِ رفضتِ وتريدين الاستمرار على كبسولات التخسيس، وفي الوقت ذاته لا تساعدين نفسك، ألم أخبرَكِ مرارًا وتكرارًا أن ممارسة الرياضة بانتظام، خصوصًا رياضة المشي والإقلاع عن تناول السكريات والوجبات المشبعة بالدهون، سوف يكون له تأثير كبير على جسدِك، وسوف يساعد على التخلص من الوزن الزائد؟

أجابته في حدة:

– لقد أخبرتكَ قبْلَ أن تقبلَ حالتى أني أعشق السكريات، ولا أستطيع الإقلاع عنها..

قاطعها في حدة مماثلة:

– حسنًا، سوف نجرب أحدثَ كبسولات التخسيس، ولكنها مكلّفة قليلًا، لقد أحضرَها صديقٌ لي من (فرنسا) أمس فقط.

أجابته في لهفة:

– أعطني إياها سريعًا، لقد أخبرتكَ مسبقًا لا تهمّ الأموال.. المهم هي النتيجة النهائية.

أخرج علبة مستطيلة من درج مكتبه وخطّ بضع كلامات على الروشتة وأعطاها لها، وهو يقول محذرًا إياها مرة أخرى:

– تفضلي... سوف تأتي بمفعول، لكن لابد من الإقلاع عن السكريات والدهون.

نظرت له في شراسة، فازدَرَد لعابه؛ فأكمل في سرعة:

– على الأقل يمكن تخفيض الكمية، لقد كتبتُ طريقة الاستعمال، وسوف نتابع الأسبوع بعد القادم.

مرت أسابيع ولم تحدث استجابة منها، تكرّر نفس الحديث مرات عديدة، فكّر قليلًا، ثم نظر إليها في تمعّن، قبل أن يهتف في اهتمام:

– حسنًا، سوف نستخدم أحدث تقنيات العالم.

مدّ يده وأخرج محقانًا من مكتبه، قبل أن يكمل:

– هذا المحقن يحتوي على مواد مضادة للأكسدة، من شأنها أن تجعلكِ تفقدين ما لا يقل عن عشرة كيلوجرامات أسبوعيًا، ما رأيك؟!

أجابته في لامبالاة:

– لا يهم الوسيلة، المهم أن أفقد وزني بأية وسيلة، لن أعترض إلا إجراء العملية.

فردَت ذراعها وأمسك يدها، ثم دفع المادة البيضاء التي يحتويها المحقن برفق، قبل أن يغمغم في لهجة أقرب إلى الاعتذار:

– صدقيني هذه أفضل وسيلة، لا ألجأُ إليها إلا نادرًا.

استلقَت على الأريكة في استرخاء، وهي تقول في ضعف ووَهَن:

– دكتور، أنا أشعر بالنعاس الشديد.. رأسي ثقيلٌ للغاية.

هتف في لامبالاة:

– لا تقاومي.. استرخي.

كانت تجد صعوبة في إبقاء عينيها مفتوحة؛ لذلك أغلقتها وهي تغمغم بصوت منخفض:

– ماذا فعلتَ بي؟! ما الذي حقنتني به؟!

أجابها بكل هدوء:

– لا تقلقي.. سوف أقوم بقطع هذه الأجزاء الزائدة التي لا تعجبك.. أخبريني بماذا أبدأ؟

ولكن (غادة) لم تستطِع سماعه، لقد سرَى المخدّر في جسدها بأكمله وفقدت الوعى.

حينها أمسك المشرط تمهيدًا لإجراء الجراحة..

بعد مرور ما يقرب من ثلاث ساعات تم الانتهاء من قطع الأجزاء الزائدة، وحاول إفاقتها، وبعد جُهدٍ جبار أفاقت.. وبعد أن استوعبت ما حدث.. حتى ارتسَمَت على ملامحها أقصى درجات الفزع.

و بعد أن أحضر لها مرآة كبيرة لتشاهد جسدها بعد التعديل.. حتى انخرطَتْ في نوبة بكاء مرير!

لقد فقدَت ما يقرب من ثلاثين كيلو جرامًا!

كما أن خصرها اختفَى تمامًا، كما أن يدَها وقدمها بها العديد من الجروح والحروق.

هتفَت في هلع:

– من أَذِن لك بالموافقة على هذه المجزرة المروعة؟! أنتَ لستَ طبيبًا.. أنتَ جزار.

ضحك بصوتٍ عالٍ، ثم قال متسائلًا:

– ألم يكن هذا مطلبك؟! ألم أجرّب كل الطرق معكِ وفشلتُ بسبب نهمك الشديد للطعام والشراب، لم أجد سوى هذا الحل الوحيد، لقد نجحَت العملية وأصبح جسدُكِ رشيقًا كما تمنيتِ، لماذا البكاء والعويل؟!

هتفت بصوت مختنق:

– كان يجب أن تستشيرني.. لو أخبرتَني بفشلك وعدم جدوى العلاج لكنتُ ذهبتُ إلى طبيب آخر.

أجابها:

– لايمكن أن أسمح لكِ بالتفوّه بكلمة أن الطبيب (شريف) فاشل.. أو لَم يستطِع علاجك.

ذرفت دموعها غزيرة، ثم أخيرًا استسلمَت للأمر الواقع.

بعد مرور عدة شهور، تلقّى اتصالًا هاتفيًا، فأجاب قائلًا:

– (شريف) يتحدث.. من معي؟

رد الطرف الآخر:

– أنت لا تعلم من أنا، لكن أنا أعلم أنكَ طبيب ماهر، شهرتُك تسبقك، أنا (علاء) سكرتير رجل أعمال شهير، وبعد التحرّي عنك وعن مهاراتك كلّفني بالاتصال بك؛ فهو يرغب في الحصول على استشارتك، لكن لا يريد أن يعلَمَ أحد بذلك، أنت تدركُ تعقيدات رجال الأعمال، أليس كذلك؟ بالإضافة إلى أنه سوف يدفَع الثمن مضاعفًا.

تهلّلَت أساريره وهو يجيب:

– بالطبع أعلم ذلك، حسنًا متى يريد الحضور؟

أجابه قائلًا:

– في الواقع أنت من سيحضر إلينا، سوف تحضُر سيارة تقِلُك للقصر غدًا في الثامنة مساءً، قم بإلغاء أية ارتباطات غدًا، وسوف نتكفل بكافة المصاريف لا تقلق.

هتف بسرعة:

– حسنًا، سوف أحضُر في الميعاد المحدّد.

ثم أغلق الهاتف وجلس يفكّر في الأرباح التى سوف يجنيها.

مرت الساعات سريعًا وحضرَت السيارة بالفعل، وبعد مرور نصف ساعة وصل إلى قصر مهيب، وما أن هبط حتى وجد في استقباله (علاء)، وهو يبتسم قائلًا في مودة:

– مرحبًا بك يا سيدي، تفضّل بالدخول.. السيد (فادي) في انتظارك.

تقدّم إلى القصر وهو مبهور بالأثاث واللوحات الفنية، وبعد قليل حضر الخادم وقام بتقديم عصير ليمون، تناول الكوب وهو يقول مخاطبًا (علاء):

– متى سيحضر السيد (فادي)؟

ابتسم وهو يجيب إجابة مختصرة:

– قريبًا.

بعد أن تناول العصير أحسّ بدوخة وزغلَلَةٍ في عينيه، حاول أن يرفع يده إلا أنه فشل.. وفقد الوعي.

مرّت ساعتان ثم استعاد وعيه؛ ليجد نفسه في غرفة مغلقة، أشبه بحجرة العمليات.. حاول أن يصرخ، لكن تبيّن أن هناك لاصقًا طبيًا على فمه.. حاول أن يهرب، كانت يداه وقدماه مكبلتَين.

ما الذي حدث؟!

تذكّر ذهابه إلى القصر، لابد أن العصير به مخدر..

لكن لماذا تم تخديره؟!

قبل أن يسترسِلَ في ذكرياته فتح باب الحجرة وطالَعَه وجه رجل، وقف أمامه وهو يقول:

– كيف حالكَ أيها الطبيب؟! لقد علمتُ أنك طبيب قدير، ويكفي ما فعلته لزوجتي من اهتمام، حتى فقدَت الكثير من وزنها.

ابتسم إبتسامة خفيفة، ثم أكمل:

– لذلك قررتُ مكافأتك.

ثم أشار بيده قائلًا:

– تقدّمي.

فتح باب الحجرة وطالعَهُ آخر وجه يتمنى رؤيته..

وجه (غادة)..

ابتسمت وهي تقول في سخرية:

– لقد أردتُ شكركَ على حسن معاملتك، وأيضًا لك الفضل في فقدان وزني.

ثم اكتسَى وجهها ببعض الصرامة وهي تقول بصوت حزين:

– وأيضًا بعض أجزاء من جسدي؛ لذلكَ قررتُ مكافأتك ورد الجميل إليك.

ارتسمَت أبشع علامات الفزع والرعب على وجهه، وحاول الصراخ إلا أن اللاصق حال دون ذلك، قبل أن تمسكَ مشرطًا جراحيًا وهي تقترب منه أكثر:

– لكن بما أنك في قصرنا المتواضع.. فلقد رأيتُ أن المكافأة يجب أن تكون مضاعفة.

نزعَت قميصه وهي تقول:

– بالطبع أنا لستُ طبيبة ولا أعلم مكان الأعضاء مثل الكبد والطحال وما إلى ذلك، لكننى سوف أستكشف بنفسي.

مدّت يدها على صدره، ثم توقّفَت وهى تغمغم:

– لا هذا القلب، سوف نتركه للنهاية!

ثم انتبهَت إلى أمر غاية في الأهمية، فهتفت:

– معذرةً؛ لا يوجد لدينا مخدر موضعي، لقد رأيتُ أننا لن نحتاجه.

ثم أطلقَت ضحكة ساخرة..

خبيثة..

ثم بدأَت..